اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية

أولا - اللغة ظاهرة إنسانية

اللغة ظاهرة إنسانية يعرف بها الإنسان من الحيوان ، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾ [الرحمن: 1: 3] . وهو النطق الصحيح المعرب عما في الضمير[1]. وهذا من فضل نعمة الله تعالى على الإنسان ، فقد أعطاه القدرة على الإفصاح والتبيين من خلال أعضاء النطق التي تعينه على الكلام ، ويستطيع تنويع الأصوات وتقطيعها والتحكم في قوتها . وآتاه قوة حسية يستطيع بها أن يتخيل الأمور الخارجية في العالم ، ويضع لها تصورا ذهنيا يحتفظ به في نفسه حتى يثيره مثير ، فيعبر عنه بالأصوات التي يؤلف منها كلمات ، كما أنه يستطيع أن يعرب عن مشاعره أو وجدانه ، فيفرغ طاقته ، الوجدانية في كلمات ، ويستطيع باللغة كذلك أن يتواصل مع قرنائه أو يعبر لهم عن مقاصده[2].

واللغة التي يتحدثها الإنسان مكتسبة بالتعليم ، والتلقين ، وليست من الأمور الفطرية التي جبل عليها بالطبع ، وهذا هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ وقوله: ﴿ عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ ا[العلق: 4 ،5] فاللغة علم يتعلمه الإنسان في الصغر من الوسط الاجتماعي المحيط به ، وقد تعلم اللغة آدم عليه السلام ، وهو أبو البشر ، ولكنه لم يتلق اللغة عن المجتمع ، وهذا الأمر موضع خلاف بين العلماء .

ويستوقفنا قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن: 4] قيل البيان: اللغة أو أسماء كل شيء ، وقيل علمه اللغات كلها ، وقيل: «الإنسان» يراد به جميع الناس، فهو اسم للجنس ، «والبيان» على هذا الكلام والفهم ، وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان . وقيل علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به .

وهذا يؤكد أن الإنسان يتعلم اللغة عن طريق التدريب والتحصيل ، وهو الثابت من

---

(1) ارجع إلى البيان والتبيين جـ 1/ 12 . وتفسير النسفي جـ 3/ 1 .

(2) ارجع إلى كتاب العبارة ابن سينا ص 1 ، 2 .

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ ونظير هذا:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق: 1: 5] . فالتعليم بالقلم يكون بالتدريب ، والتعليم يكون عن طريق الحفظ والتجويد والفهم قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ [الرحمن: 1-2][1] أي علمه نبيه ﷺ حتى أداه إلى جميع الناس ، تلقيًا وإبانة، والبيان أوسع من معنى اللغة ، فاللغة أصوات تشكل أبنية الكلمات التي تدخل في نسيج تركيبي منظم للتعبير عن أغراض مكنونة في النفس ، وتعد اللغة أوسع فروع البيان الذي يشتمل أيضا عناصر أخرى غير لغوية تؤدي معنى مثل: الإشارة ، والحركة ، الهيئة ، والرمز . قال الجاحظ: «البيان: اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التي عليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى بذلك هو البيان في ذلك الموضع»[2] ، فالإنسان لا يعبر عن نفسه باللغة فقط بل بالإشارة ، والحركة ، والرمز ، والهيئة ، وغير ذلك من الرموز والهيئات التي ترمز إلى دلالة في النفس[3]. فالله تعالى لم يعلم الإنسان الكلام فقط، بل زاده قدرات أخرى يفهم بها المعنى من غير الكلام .

فمعنى البيان في النص القرآني يتخطى معناه البلاغي الذي يشير إلى مستوى من مستويات الأسلوب الخاص الذي يتجاوز خطاب العامة ، فالبيان في النص يعني اللغة ، وما تحتويه من أساليب بلاغية خاصة (تسمى بيانا في عرف البلاغيين أو في علم البيان) ويدخل فيه أيضا جميع الرموز والحركات التي تعبر عن معنى .

والتواصل بالحركة والإشارة والهيئة من المواهب الخاصة بالإنسان الذي يستطيع

---

(1) ارجع إلى تفسير القرطبي وتفسيره هذه الآيات .

(2) البيان والتبيين ، عمرو بن عثمان للجاحظ ، المكتبة العصرية 1/ 56 .

(3) ارجع إلى: الدلالة اللفظية للدكتور محمود عكاشة ، مكتبة الأنجلو ص8: 17 ، وقد فصلت الأمر في ذلك تفصيلا .

التعرف على مدلولاتها ، وما توحي به بعض الهيئات الساكنة أو المتحركة من دلالات ، مثل حركة الأشجار أو سكونها ، وآثار الأقدام ، وخراب الديار ، وما يعيه الإنسان من هيئة الملبس أو هيئة الوجه ، هذا إلى جانب أن للإنسان القدرة على التصرف في لغته وتطويرها والزيادة فيها وابتكار مفردات جديدة ، تعبر عن مراحل نضجه وتطوره .

وأعظم دليل على قدرة الإنسان على الكلام وإنتاجه ، وتطويره أن من آيات الله فيه اختلاف الألسن ، واختلافها يعني انحرافها عن اللسان الأول الذي تكلم به آدم عليه السلام ، وهذا يؤكد أن الإنسان استطاع أن يبتكر أساليب لغوية جديدة غير التي تلقاها عمن سبقه ، ويؤكد أيضا مبدأ التواضع أو الاصطلاح في لغتنا المعاصرة ، فليست لغتنا المعاصرة وحيًا أو إلهامًا ؛ لأنها ليس كتلك التي تعلمها آدم وتكلم بها ، وإن كان ما نتلكم به تمتد بعض جذوره إلى اللغة الأولى الأم ، ولكن لا نستطيع أن نزعم أن ما نتعلمه الآن هو ما تكلم به الرعيل الأول .

فاللغة التي تكلم بها آدم مجهولة لنا ، وليس لدينا القدرة على وصف شيء منها ، لكن الذي لا نجهله أن آدم لم يكن أصم ، واختلف العلماء في الأسماء التي علمها الله تعالى آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: 31] ولكن الذي لا خلاف فيه أن آدم عليه السلام لديه القدرة على تعلم اللغة ، ولديه القدرة على التحصيل والفهم والحفظ ، ولا يختلف أهل العلم قديما وحديثا أن الإنسان له جهاز نطقي يستطيع به إنتاج أصوات يتحكم في تنويعها وتقسيمها ، وترتيبها في قوالب لفظية ذات معنى ، وأن الله تعالى وهب آدم وذريته دون الخلق قدرة خاصة في إنتاج الأصوات تعلو مستوى الخطاب العادي وهي البيان ، وهو مستوى يتمتع بخصائص أسلوبية متميزة ، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن: 3 ،4] وهو ما لا يقدر عليه غير البشر مما يصدرون أصواتا إشارية تعبر عن كل نوع من الحيوانات أو كل فصيلة حيوانية .

لقد وقفت العلماء وقفات عديدة أمام المراد من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ وما زال الأمر محل الاجتهاد ولم ينته الاجتهاد حتى

الآن في بحث المراد بالأسماء التي تعلمها آدم ، وما معنى البيان في النص؟ هل الكلام أم خصوصية الإبانة في الأسلوب؟ وهو المستوى الذي يتمتع بخصائص أسلوبية تعلو رتبتها مستوى الخطاب اليومي .

واستوقفني ما قيل حديثا في معنى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ : «أحد «معاني» هذه الآية الكريمة يفسر لنا أن «الكلام» هو أهم «القدرات الرئيسية الفذة» التي وهبها «الله» سبحانه وتعالى للإنسان ، ليستطيع أن «يدرك ويفكر ويعبر» عن معان أو مدلولات ما في ذهنه من «الأفكار» وما حوله من «مظاهر» وعما يحس به من «انفعالات» حسية أو معنوية . ويتم ذلك بواسطة مجموعة من «الرموز والصور الصوتية» التي تمثل «المعاني» المختلفة ، وذلك من خلال ظاهرة صوتية حقيقية محسوسة أو حدث واقعي أو تعبير صوتي ظاهر أو هو «نطق أصوات لغة الكلام»[1] .

وهناك سؤال يطرح نفسه لماذا خصت الأسماء بالذكر في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ دون ذكر الأفعال أو الحروف؟ .

ليس لدي جواب مقطوع به أو رواية مقطوع بها في هذا الأمر ، فكل ما قيل في كتب التفسير عن المراد بالأسماء اجتهاد بالرأي ، وليس فيه نص قطعي الثبوت ، وقد بحث العلماء المراد بالأسماء ، وجميعهم يتفقون على أن المراد بالأسماء أسماء الذوات أو المسميات ، ولكنهم اختلفوا في الأشياء التي تعلم آدم أسماءها أسماء كل شيء وقع بصره عليه ، أم أسماء ذريته أم غير ذلك؟ وقد رجح ابن كثير الرأي الأول: «والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها»[2] . وجاء في الإصحاح الثاني من العهد القديم: «وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية»[3] .

---

(1) أطلس أصوات اللغة العربية، دكتور: وفاء البيه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1994م ص12.

(2) تفسير ابن كثير ، المكتبة التوفيقية م1/ 74 .

(3) الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس ص5 ،6 وجاء فيه « هذه (أي حواء) تدعى امرأة ؛ لأنها من امرئ أخذت» ص6 وجاء في الإصحاح الثالث: «ودعا آدم اسم امرأته حواء ؛ لأنها أم كل حي».ص7.

وليست قضيتنا بحث المقصود بالأسماء أو ما ترمز إليه ، ولكن الذي يهمنا في هذا المقام أمر مهم جدا أغفل عنه كثير ممن بحث المراد بالأسماء ، ألا وهو لماذا علم الله تعالى آدم الأسماء وخصها بالذكر دون عنصرين آخرين من مكونات اللغة ، وهما الأفعال والحروف ، وهل المراد بالأسماء عين الأسماء أو الرموز التي يبحثها علماء النحو ضمن مكونات الكلام أم المراد بها شيئًا آخر لا نعلمه؟

ليس أمامنا سوى أن نأخذ بالمتاح لنا من علم في ذلك ، وهو ما جاء عن بعض المفسرين أن المراد بها الرموز التي تشير إلى أعيان أو موضوعات أشياء حسية أو معنوية ، ولكن لماذا اختصها الله تعالى بالذكر من بين مكونات الكلام الأفعال والحروف؟ .

وقد نجد جوابا شافيا في كلام العلماء في حديثهم عن الأسماء ، وأسبق ما قيل في هذا الشأن ما قاله ابن سينا في حديثه عن اكتساب الإنسان اللغة من خلال تصوره لهيئات الأشياء الحسية ، فترتسم صورها في النفس على نحو ما أداه الحس ، ثم تتحول هذه الصور المرتسمة في النفس إلى معان مجردة ، فقد انقلبت الأشياء المرتسمات في الحس عن هيئتها المحسوسة إلى التجريد ، ثم رمز الإنسان إلى تلك المعاني المجردة في نفسه برموز صوتية يستطيع الإنسان التلفظ بها ، ليعرب عما في نفسه ، ويحقق مقاصده[1] .

وقد أشارت الآية الكريمة أن آدم عليه السلام تلقى أسماء الأشياء التي تعلم أسماءها وحيًا ، فقد نسب الله تعالى تعليم آدم إلى ذاته العلية ، فقال: ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ** ﴾ . ولا شك أن آدم هبط إلى عالم لم ينشأ فيه غير مألوف إليه ويحتاج إلى اكتساب معلومات عنه ،فعلمه الوحي ما يحتاج إليه . للتعرف على مسميات هذا العالم بظروفه القاسية والمعاناة التي لم يألفها آدم من قبل .

واللغة يتلقاها الإنسان تعليما وتدريبا و تلقينا ، فالطفل لا يتكلم اللغة إلا بعد أن تكتمل لديه أعضاء النطق وتقوى على الأداء ، ثم يدرب على نطق بعض الكلمات السهلة أولاً ، وهي الأسماء المألوفة دون الأفعال ، وخاصة الأسماء التي تستخدم في محيط الأسرة

---

(1) العبارة ، ابن سينا ، تحقيق محمود الخضري ، الهيئة المصرية للكتاب . ص 1 ، 2 .

مثل أسماء الأب والأم والإخوة ، وهذا يعني أن الأسماء تأتي أولا ، ثم الأفعال ، وأن اللغة تبدأ بالأسماء ثم تصنع منها صيغ الأفعال ، مثل صناعتنا أفعالاً من أسماء دخيلة وجامدة ، مثل: مغناطيس: مغنط ، تليفزيون: تلفز ، ومثل سرف: سرفل . وتلفن ، وسرقن الأرض: سمدها بالسرقين ، والآخير معرب (السرجين) . ومثل: سرك: من السركي (دخيل) صك يشبه الوصل. والجامد مثل: أسماء الأفعال الجامدة مثل: آه: تأوه ، وأف : تأفف ، ومثل اشتقاق صيغ أفعال من الأصوات ، مثل: عوى من العواء ، وزأر ، وموأ من مواء القطة . وهبهب ، من صوت الكلب ، وتف: صوت البصق . ومثل: دش ، وطس . والطفل في بدء تعلمه يحاكي الأصوات أولاً ويتعرف على الناطق أو ماله صوت ، ثم يتعرف على الساكن . «ومن الحقائق العلمية أن «الطفل» لا يستطيع أن يكتسب القدرة على نطق أصوات أي لغة من اللغات إلا من خلال تعلم المسميات أولا ، والآية الكريمة ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ** ﴾ تؤكد أن نشأة نطق «أصوات لغة الكلام» متصلة اتصالا مباشرا بنشأة وتطور الإنسان والبشرية ، وقد خصت الآية الكريمة الأسماء بالذكر دون بقية مكونات اللغة (الأفعال ، والحروف) . وهي المرحلة الأولى من تعلم اللغة بعد أن هبط آدم إلى الأرض .

وقد أفرد السيوطي مكانًا في كتابة «الأشباه والنظائر في النحو» نقل فيه عن بعض العلماء أن الاسم أصل للفعل والحرف ، ونقل عن عمر بن محمد الشلوبين الأندلسي (ت 645هـ) الذي رأى أن الاسم أصل للفعل والحرف ، «ولذلك جعل فيه التنوين دونهما ليدل على أنه أصل ، وأنهما فرعان ، قال: وإنما قلنا إن الاسم أصل والفعل والحرف فرعان ؛ لأن الكلام المفيد لا يخلو من الاسم أصلا ، ويوجد كلام مفيد كثير لا يكون فيه فعل ولا حرف ، فدل ذلك على أصالة الاسم في الكلام وفرعية الفعل والحرف فيه ، وأيضا فإن الاسم يخبر به ويخبر عنه ، والفعل لا يكون إلا مخبرا به ، والحرف لا يخبر به ولا يخبر عنه ، فلما كان الاسم من الثلاثة هو الذي يخبر به ويخبر عنه دون الفعل والحرف دل ذلك على أنه أصل في الكلام دونهما»[1] .

وذهب البصريون والكوفيون إلى أن الأسماء قبل الأفعال ، والحروف تابعة للأسماء ،

---

(1) الأشباه والنظائر جـ 1/ 64 .

وذلك أن الأفعال أحداث الأسماء ... وأما الحروف ، فإنما تدخل على الأسماء والأفعال لمعان تحدث فيها ، وإعراب تؤثره ، وقد دللنا على أن الأسماء سابقة للإعراب ، والإعراب داخل عليها ...»[1] . وهذا هو مبلغ علمنا ، ولا نستطيع أن نزيد على ذلك تخرصا .

واللغة التي يتكلمها الإنسان خاصة به وحده ، لا تنسب لغيره من الأحياء ؛ لأنها ابتكار إنساني وله حق ملكيتها ، ويطوعها لحاجاته في الحياة ، ولكن حكم التعبير عن المراد في عالم يختلف عن الإنسان ، ولا يلم بأسرار أصواته وحركاته إلا الله تعالى ؛ لأنه سبحانه وتعالى له القدرة على فهم أسرار مخلوقاته ، وما توحي به ، ولا يفهم الإنسان من ذلك شيئا إلا بمعجزة من الله فقد وهب الله سبحانه سليمان القدرة على فهم منطق الطير ، وأسمع داود تسبيح الطير والجماد . والكلام وقف على الإنسان وحده ، وظاهرة إنسانية اختصه الله تعالى بها وهذا صحيح، اعتدادًا باللغات الإنسانية التي بلغت نحو ثلاث آلاف لغة، فلا يوجد نوع آخر من الأحياء يشارك الإنسان في اللغات التي يتكلمها إلا ما خفي علينا من خلق الله تعالى ، فالله يعلمهم ، ويعلم لغتهم ، ولا يعتد في ذلك ببعض الحيوانات التي تحاكي بعض الأصوات الإنسانية بعد تدريبها ؛ لأن هذه الحيوانات لا تعي مدلول تلك الأصوات ، ولا تتخذها لغة تتواصل بها مع بقية أفراد أنواعها .

وما أسند من حديث إلى النملة أو الهدهد في القرآن الكريم لا يعني أنهما يتكلمان لغة إنسانية ؛ لأن الله تعالى وهب نبيه سليمان معرفة مقاصد بعض الخلق بوحي منه ، وما روي في حق الأنبياء والرسل وحديثهم مع الحيوان والطير والجبال والريح ، وإلخ ، فمن معجزات النبوة ، وذلك من أعمال الوحي يوحيه الله تعالى إليهم ولا تحمل عليه لغتنا المعاصرة .

ولكن المسلم به حقيقة أن كل فصيلة حيوانية وكل نوع له شفرة تواصلية خاصة به أو منطق خاص قد يكون إشارة أو حركة أو صوتا أوهيئة ، ونلاحظه في سلوك الحيوانات والطيور ، كتحريك الذيل بحركة معينة وهز الرأس عند الرغبة في التزاوج ، أو رفع الرأس

---

(1) نفسه .

فجأة مما ينذر بوقوع خطر ، فيهرب القطيع معا طوعا لملاحظة فرد منه ، أو كأصوات بعض الحيوانات مثل نقيق الضفدع في موسم التكاثر صيفا ، وانقطاع هذا الصوت انقطاعًا تاما يعني شعور هذا القطيع بدخيل أو خطر ، فيكف عن النقيق لئلا يعلم مكانه ، وكذلك ما نفهمه من أصوات بعض الحيوانات الأليفة مثل القطط أو الكلاب من رغبتها في طعام أو شراب ، وكذلك الأصوات التي تحدثها في شجارها مع بعضها أو خصومها ، كل ذلك ينبئ بوجود شفرة خاصة أو منطق خاص لهذه الأحياء تتواصل به في حياتها ، وهذا الخلق أو الطبع مجبولة عليه بفطرتها ، لكن منطق هذا الأحياء تتواصل به في حياتها ، وهذا الخلق أو الطبع مجبولة عليه بفطرتها ، لكن منطق هذه الأحياء لا يبلغ ثراء اللغة الإنسانية وتعددها وتطورها وتنوعها ، لأن ما يصدر عن الحيوان من أصوات محدود جدًا للغاية ، ولا يتنوع تنوع اللغة الإنسانية ، فأصوات الحيوانات التي تعيش في أفريقيا هو صوت أفراد هذا النوع في كل قارات العالم ، وكذلك الحركات والإشارات التي يتواصل بها كل نوع من فصائلها تكاد تكون واحدة في كل بقاع الأرض .

ويصعب علينا إحصاء مجموع المفردات التي يتواصل بها الجنس البشري أو إحصاء عدد لغاته قديما وحديثا إحصاءًا دقيقًا ، وكذلك يشق عليك حصر مجموع الإشارات والحركات والهيئات التي يتواصل به البشر لكثرة تنوعها وتطورها وابتكار وسائل تواصلية جديدة ، فالإنسان يضيف إلى لغته أكثر مما يفقده منها ، ومن ثم فاللغات الإنسانية في نمو مستمر يواكب تطور حركة الإنسان على الأرض ، وتقدمه في شتى نواحي الحياة ، ولكن منطق الحيوان لا يطرأ عليه هذا التطور في قنواته التواصلية .

وقد تناول علماء المسلمين ما نسب إلى الطير من منطق وما نسب إلى النملة من كلام على أنه ليس كلاما إنسانيا أو كلاما حقيقيًا يشبه كلام البشر نفهمه ، ولكن أطلق عليه كلاما توسعا أو مجازا تقريبا إلى الأذهان وتيسيرا للإفهام ، وهو أسلوب القرآن الكريم في تقريب المعاني التي لا يستطيع الإنسان استيعابها لتخطيها إدراكه مثل: حديثه عن وصف الجنة والنار وتمثيله لثمار الجنة وأنها تشبه ثمار الدنيا وأنهارها وليس هذا إلا تقريب الوصف ليفهم الناظر ما يسمع أو يقرأ .

وليس هذا المسلك في رسم الصور وتقريب المعاني ببعيد عما جاء في الشعر والنثر قبل نزول القرآن الكريم وبعده ، فهذا سمت العربية في معالجتها المعاني البيانية ، وقدرتها الفذة على ابتكار معاني مجازية أكثر تأثيرا في النفس وأسرع للفهم ، وأجمل في الوقع ، وأبعد عن نفور المتلقي وملله ، والعرب يميلون إلى المجاز ويتأثرون به ويستحسنون ألغازه وجمال أسلوبه .

وقد جاء في شعر العرب أمثلة كثير نسب فيها القول للحيوان والطائر والجماد مجازا . ونجد هذا مألوفًا في عامة كلام العرب ، وشعر الجاهلية يقدم نماذج عديدة مثل معلقة امرئ القيس[1] نجد خطابا منه موجها إلى الليل الطويل يطلب منه أن ينجلي:

أَلا أَيُّها الليلُ الطويلُ ألا انْجَل بصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ منكَ بَأَمْثَلِ

ونجد عنترة بن شداد العبسي يتحدث عن شكوى فرسه إليه بعبرة وتحمحم من وقع ما وقع في صدره من نبل وقنا[2] .

فازورَّ من وقْعِ القَنَا بلَبَانهِ وشَكَا إليَّ بعَبرةٍ وتَحَمْحُمِ

لو كانَ يدري ما المحاورة اشتكَى ولكان لو علِمَ الكلامَ مُكَلِّمِي

ولم يك ذلك كلاما بل فهمه من حاله الذي دل عليه .

وقد سجل ابن جني بعض الأشعار التي نسب فهيا حديث للطير والجمال مثل: الحوض والسحاب ، وذلك كله محمول على المجاز لا الحقيقة ، وعقب على ذلك بقوله: «فهذا كله اتساع في القول .. وكأن الأصل في هذا الاتساع إنما هو محمول على القول وضيق مذاهب الكلام[3] ، ورأى أن أصوات الحيوانات والكائنات وما يوحي به الصمت يسمى كلاما ومنطقا وقولا جوازًا: « وإذا جاز أن تسمى الرأي والاعتقاد قولا ، وإن لم يكن

---

(1) شرح المعلقات العشر . وأخبار شعرائها، الشيخ أحمد بن الأمين، الشنقيطي، دار القلم ، بيروت . معلقة امرئ القيس ص86.

(2) الديوان ط مكتبة الأسرة ص202 والمعلقات ص168 .

(3) الخصائص جـ 1/ 36 .

صوتا ، كانت تسمية ما هو أصوات قولا أجدر بالجواز . ألا ترى أن الطير لها هدير ، والحوض له غطيط والأنساع لها أطيط ، والسحاب له دوي»[1]. وتناول ابن جني ما توحي به الهيئة ، فسميت مجازا لغة توسعا في المعنى ، «فأما قوله: «وقالت العينان سمعا وطاعة» (يعني بيت عمر بن أبي ربيعة) فإنه ، وإن لم يكن منها صوت ، فإن الحال أذنت بأن لو كان لهما جارحة نطق لقالتا: سمعا وطاعة. وقد حرر هذا الموضوع وأوضحه عنترة بقوله:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان- لو علم الكلام- مكلمي

وامتثله شاعرنا [يعني المتنبي] آخرا قال[2]:

فلو قدر السنان على لسان لقال لك السنان كما أقول

ثانيا ـ اللغة ظاهرة اجتماعية

إن الفضل في نشأة اللغة عامة يرجع إلى المجتمع البشري الذي يتواصل بها ، فلا لغة دون مجتمع ، فاللغة ليست ظاهرة فردية فقط يعبر بها الإنسان عن نفسه بل اجتماعية تنشأ عن رغبة في التواصل مع الآخرين وحاجة المجتمع إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار والتعبير عما بالنفس من معان ومقاصد . واللغة في بنيتها مجموعة من الأصوات تؤلف كلمات ، تتألف منها جمل بيد أن وظيفتها تحقيق مقاصد اتصالية ، فاللغة وسيلة الاتصال الأولى بين أفراد المجتمع ، وتعد أهم وسائل الاتصال الإنساني ، وتعد سجلا تاريخيا لحياة المجتمع ترصد سلسلة متتالية من وقائع الماضي وتتفاعل مع الحاضر .

وقد توصل علماء العربية قديما إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، يحتاجها الإنسان ليتواصل بها مع الآخرين ، ويعبر بها عن مقاصده ، ويكتفي بها عن إحضار الشيء الذي يتحدث عنه ، ولابد أن يدل على محل احتياجاته وعلى مقصوده وغرضه ، فاستعان باللغة للدلالة على

---

(1) نفسه .

(2) نفسه .

ذلك[1].

وقد توصل ابن جني في زمن مبكر إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وذكر ذلك في تعريف اللغة «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» ، فاللغة ليست مجردة من وظيفتها الاجتماعية وليست مجرد أصوات تخلو من الدلالة أيضا بل الأصوات والدلالة قاسمان مشتركان في وظيفتها الاجتماعية .

وقال الإمام فخر الدين الرازي واتباعه: «السبب في وضع الألفاظ أن الإنسان وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لابد من التعاون ، ولا تعاون إلا بالتعارف ، ولا تعارف إلا بالأسباب ، كحركات أو إشارات ، أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد ، وأيسرها وأفيدها وأعمقها الألفاظ»[2].

وقال ابن سينا: «ولما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمحاورة ، انبعث إلى اختراع شيء يتوصل به إلى ذلك»[3]. فاللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية ، يتواصل بها المجتمع ويعبر عن نفسه بها ، كما أن اللغة وسيلة الاتصال الأولى بين أفراد المجتمع ، وأكثرها دقة وتعبيرا واتساعا وأسرعها فهما ، وأعظمها تأثيرا .

وترتبط اللغة ارتباطًا شديدًا بالمجتمع ، فهي ترقى برقيه وتنحط بانحطاطه ، فالأمم الضعيفة تضعف لغتها ، وتتعرض لغزو لغات أخرى ، وقد تتلاشى أمام لغة الأمة الغازية التي استطاعت بفضل قوتها وحضارتها استعمار الأمة الضعيفة ، فتهيمن عليها سياسيًا واقتصاديًا وتفرض عليها لغتها وثقافتها ، والمجتمعات الفقيرة تتشبث بجلباب المجتمعات الراقية ، وتحاكيها في لغتها وسلوكها . «وتتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمها ، وتقالديها وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ونظرها إلى الحياة وشئونها

---

(1) الخصائص جـ1/ 34 . ارجع إلى المزهر 1/ 36 ، وقد نقل عن أبي الحسن بن محمد بن علي الملقب بعماد الدين المعروف بالكيا الهر اسي ، و(وهو فقيه مفسر) ما يدل على ما ذكرناه ، وقد قال ابن خلدون مثله في مقدمته .

(2) المزهر 1/ 38 .

(3) العبارة ص2 .

الاجتماعية العامة ، فكل تطور يحدث من ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير»[1].

فاللغة تمثل ما توصلت إليه أمة من الأمم من حضارة ، ومن فكر ، ومن تغير . فقد كان لظهور الإسلام – وما زال أثره كبيرًا في حياة اللغة العربية – بل يرجع إليه الفضل كل الفضل في نموها وتطورها واتساعها ، فقد انتشرت بانتشار الإسلام في أرجاء المعمورة ، ومسلمو العالم يحرصون على تعلمها تقربا إلى الله تعالى ، وليفقهوا كتاب الله العظيم .

وقد أثرى الإسلام اللغة العربية بدلالات جديدة للكلمات ضيقة الدلالة مثل: الصلاة ، والجهاد ، والإيمان ، والعقيدة ، والتقوى، والحج ، والزكاة وغيرها من الكلمات التي اتسعت دلالتها وانتشرت على الألسنة ، إلى جانب المصطلحات التي استخدمها علماء الإسلام في الفقه واللغة والنحو والفلسفة وعلوم التفسير والحديث وغير ذلك من العلوم التي استخدمت المفردات بمفاهيم واسعة ، إلى جانب ما استحدثوه من كلمات أعوذهم إليها ما توصلوا إليه من علوم . «فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرة حاجاتها ، ومرافق حياتها ، ورقي تفكيرها وتهذيب اتجاهاتها النفسية ، نهضت نفسها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فنون القول ، ودقت معاني مفرداتها القديمة ، ودخلت مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة»[2]. فاللغة تتأثر بحضارة المجتمع ، وما يطرأ عليه من جديد .

ويؤثر تطور المجتمع في مستويات اللغة ، فانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ويوسع نطاقها ، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة . فقد كان لانتقال العرب من طور البداوة القبلية التي صبغت المجتمع العربي بفكرها وسلوكها ، إلى طور الحضارة والانفتاح في الإسلام أثر واضح في حياة اللغة العربية ، فقد كانت مفرداتها تعبر عن حياة البداوة البسيطة ، ثم انتقلت مفرداتها من حياة البادية إلى رغد الحضارة وغضارة المدن .

---

(1) اللغة والمجتمع ، الدكتور علي عبد الواحد وافي ، دار نصفية مصر ص10 .

(2) نفسه ص11 .

إن اللغة في واقعها تمثيل دقيق للمجتمع ومرآة له ، وسجل لما فيه ، وليست هناك لغة دون مجتمع أو مجتمع دون لغة ، فاللغة ليست من صنع الفرد ، بل إنتاج مجتمع ، فالفرد يتعلم اللغة من المجتمع الذي تولد في كنفه وتنمو بنموه وتطوره . وتتأثر به في مدار حياتها .

وأصدق دليل على اجتماعية اللغة ، أنها تختلف في المجتمع الواحد الذي يتحدث لغة واجدة ، فالمجتمع يختلف في بعض العادات والتقاليد والطبائع ، وتوجد كذلك فروق لهجية في اللغة التي يتحدثها هذا المجتمع ، وتظهر هذه الفروق في مناطق محلية مستقلة ، وتزداد حدتها عندما تضعف أواصر التواصل بين هذه المناطق ، بل نجد اللغة تختلف باختلاف الطبقات ، واختلاف أرباب المهن ، فلكل طبقة أسلوب خاص في الحديث يميزها عن غيرها ، وكل أصحاب مهنة يشتركون في مجموعة من المفردات تميز خطابهم عن غيرهم ، فالناجر له كلمات تخصه ، والكافر (الفلاح) له لغة تخصه ، وكذلك البحار ، وغيرهم ، وتتميز كذلك الطبقة المثقفة بأسلوب خاص في الخطاب اليومي ، يدركه أبناء المستويات الأخرى .

واللغة تحمل سمات الشخصية التي تنتجها أيضا ، وقد قيل: «حدثني حتى آراك» ، فحديث الشخص يحمل ملامح شخصيته ، ويتضمن فكره ، ورؤيته ، وهذه الملامح الفردية لا تظهر في أسلوب الفرد إلا في إطار اجتماعي يتميز فيه عن بقية أفراده بفكره وأسلوبه ومفرداته ، وقد قيل إن الأسلوب هو المتكلم نفسه ، فهو صاحبه أو منتجه . وقد وهب الله تعالى الإنسان القدرة على الإبانة والإفهام ، باللغة التي تميز بها عن سائر المخلوقات .

اللغة الفصحى

لكل لغة أكثر من مستوى سواء أكانت لغة مكتوبة أو منطوقة ، وتتعدد مستوياتها في الخطاب المنطوق ؛ لأنه خطاب شفهي لا يتقيد بقواعد الكتابة ، وليس له ضابط عام يقيده عن التنوع والتطور المستمر ، ولهذا فهو خطاب غني بالأشكال اللغوية والأساليب المختلفة التي قد لا تنتمي لقواعد اللغة الأساسية التي ينتمي إليها هذا الخطاب الذي تمرد على بعض قواعدها العامة ، ولم يلتزم بعرفها في مستوياته الصوتية ، والصرفية، والتركيبية، والدلالية ، وقد حظى هذا الخطاب بمنزلة كبيرة في التواصل اليومي ، لأنه يعبر عن مختلف المواقف الكلامية في مجال الحياة اليومية ، ويعبر عن لغات جميع فئات المجتمع ، ويسمى هذا الخطاب اليومي بالعامية أو اللغوة المحلية (اللهجة)، وهو على مستوى الجماعات اللغوية المختلفة يسمى لهجة أحيانا .

ولدينا سؤال يطرح نفسه ما هي اللغة الفصحى أو الكلام الفصيح الذي يعد مقياسا للعربية الصحيحة التي يقاس عليها؟

«اختلف العلماء في تعريف الفصيح ، وأشهر ما قيل فيه أن مدار الفصاحة على كثرة الاستعمال وعدمها على قلته»[1].

واللغة الفصحى هي التي توافق المشهور من كلام العرب وسلمت من اللحن ، والإبهام وسوء الفهم .

ويمثل هذا المستوى من العربية اللغة المشتركة المثالية التي يحاول كل فرد أن يحققه في لغته المكتوبة والمنطوقة ، ويوافق هذا المستوى عرف العربية العام الذي يتفق عليه أبناؤها في مستوياتها الصوتية ، والصرفية، والنحوية ، والمعجمية ، وتمثل هذا المستوى لغة القرآن الكريم وتراث الجاهلية المدون شعرًا ونثرًا ، وتراث صدر الإسلام حتى القرن الرابع

---

(1) المزهر 1/ 188 ، اختلف العلماء في الفصاحة: هل تكون في اللفظ أو في المعنى أو في التركيب أو في الصورة البيانية أو البديع ؟

الهجري ، شريطة أن يوافق تراث الجاهلية الذي يعد مصدرًا لغويًا أساسيًا[1] .

وقد بحث علماء العربية قديما مصادر العربية الفصحى المشهورة التي يقيسون عليها ، ويحتجون بها ، فنظروا في قبائل العرب التي يأخذون اللغة عنها ، واعتبروا حال لسانهم ، فأخذوا اللغة عن العرب الفصحاء الموثوق بعربيتهم ممن لم يخالطوا أمما أخرى لا تتحدث العربية ، فوقع اختيارهم على قبائل تتحدث بالمشهور من كلام العرب ، ولم يتأثر لسانها بألسنة أخرى تفسده .

ولسان قريش هو أفصح الألسنة وأبينه وأسهله ، وأكثر ألسنة العرب انتشارًا في العرب ، فهو يمثل اللغة المثالية المشتركة ، وكانت تمثل اللغة العليا للشعراء والخطباء والفصحاء ، ولم يكن داخل مكة ازدواج لغوي ، فقد كان لسانها واحدا بيد أن القبائل الأخرى كانت لها لهجة محلية يتواصل بها أبناء القبيلة داخليا ، وتوجد لغة أخرى يتواصلون بها خارجيا على المستوى الرسمي ، تمثل لسانا مشتركا بينها وبين القبائل التي تتواصل معها .

ولم يكن لسان قريش مجرد لهجة محلية تعيش في مكة يتحدثها القرشيون ، بل تمكن لسان قريش من التغلل في ألسنة القبائل الأخرى التي تتواصل معها ، فأثرت لهجة قريش في لهجات تلك القبائل ، وتأثرت كذلك بلهجاتها ، فقد كانت لهجة قريش بمنزلة المركز الذي تصب فيه اللهجات الأخرى ، فأخذت كثيرا من المشهور في لهجات العرب ، وأصبحت بذلك لسانًا عامًا مشتركًا بين جميع اللهجات .

وقد حققت قريش مكاسب لغوية إلى جانب مكانتها التجارية بمكانتها بين العرب ، فقد كانت إمامهم في الجاهلية ، وكانوا تبعًا لها في كل شيء: يقصدونها للحج والتجارة ويحضرون منتدياتها ومباريات الشعر والخطابة ، وكان لذلك كله أثره في إثراء لسان قريش بكثير من لهجات العرب .

قال الفراء: «كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ،

---

(1) لقد بحثنا ذلك وتوسعنا في حديثنا عن مصادر اللغة والاحتجاج . وارجع في ذلك إلى أسس علم اللغة العربية للدكتور حجازي ص16، وفي علم اللغة العربية للدكتور عبد الصبور شاهين ص165 ، 166.

وقريش يسمعون لغات العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ»[1].

وقد نقل ابن فارس عن أبي عبيد الله: «أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم وحالهم: أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب ، واصطفاهم ، واختار منهم نبي الرحمة محمد ﷺ ، فكانت وفود العرب وحجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم .

ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميهم أهل الله ؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام ، لم تشبهم شائبة ، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة ، فضيلة من الله -جل ثناؤه- لهم وتشريفا . إذ جعلهم رهط نبيه الأدنيين وعترته الصالحين .

وكانت قريش - مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها - إذ أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم تلك اللغات إلى نحائرهم وسلائقهم التي طبعوا عليها . فصاروا بذلك أفصح العرب»[2].

وكانت هناك لغة مشتركة سائدة في منطقة الحجاز ونجد وتهامة ، فقبائل قريش وخزاعة وكنانة وهذيل ، وهوازن تميم كانت تتحدث لهجات متقاربة لا توجد فيها فروق جوهرية تقطع أواصر الاتصال اللغوي ؛ لأن البيئة كانت واحدة وهي بيئة لغوية نقية ، لم تشبها الشوائب التي نالت من لهجات القبائل التي تعيش على أطراف الجزيرة العربية وتواصلت مع أمم أخرى غير عرب ، فأفسدوا بعض لغتهم ، ودخل لغتهم بعض مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ .

قال الفارابي: «كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان في النطق وأحسنها مسموعًا وأبينها إبانة عما في النفس ، والذين عنهم نقلت العربية

---

(1) المزهر 1/ 221.

(2) الصاحبي ص33 ، 34 ، المزهر ج1/ 210 وقد نسبه السيوطي لأبي عبيد الله .

وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب ، هم قيس ، وتميم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ معظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم»[1].

وقيل إن لغة قريش وخُزَاعة كانت واحدة؛ لأن الديار كانت واحدة ، فخزاعة كانت تجاور مكة بل كانت تسكن مكة قديماً ، وأخرجتها قريش منها ، وقيل إن القرآن الكريم نزل بلغة الكعبين ، وهما كعب جد قريش ، وكعب جد هذيل ، فلغة قريش ولغة هذيل كانت أيضا واحدة أو متقاربة .

وهذا يعني وجود لسان مشترك بين هذه القبائل المتجاورة في الديار والمنازل ، وروى أبو عبيد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، قال: «نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف» . قال أبو عبيد وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر ، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ، وأني نشأت في بني سعد بن بكر»[2]. وكان مسترضعا فيهم ، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء: «أفصح العرب عليا هوازن ، وسفلي تميم» .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن القرآن الكريم نزل بلسان أهل مصر ، وقيل نزل بلغة الكعبين كعب بن لؤى ، وكعب بن عمرو ، وهو أبو خزاعة ، وقيل غير ذلك أنه نزل بلغات العرب المشهورة جميعا التي خلت من المستقبح .

والقبائل التي اختارها العلماء قديما في الاحتجاج وعدوها في الفصيح ، وجدنا أنها

---

(1) الاقتراح في أصول النحو وجدله ، السيوطي تحقيق محمود فجال . مطبعة الثغر ط1/ 1409هـ - 1989م ص162 والمزهر 1/ 211 ، 212 .

(2) وجاء الحديث برواية أخرى: «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش» وهو حديث غريب ليس له مصدر، قال السيوطي في مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا: «أورده أصحاب الغرائب ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده» ونسبت أحاديث أخرى عن نشأة اللغة وفضلها إلى النبي ﷺ ولا يعلم لها مصدر.

تعيش في الحجاز ونجد وتهامة ، فد كانت هذه المناطق الجغرافية شبه معزولة عن الاحتكاك الخارجي ، فلم يقع في لغات سكانها تأثر بلغات الأعاجم ؛ لأن طبيعة البيئة وقلة ثرواتها حالتا دون غزوها عسكريا وسياسيا وفكريا ولغويا ، فلم تكن الحجاز إلا ممرًا للقبائل ذهابًا وإيابًا من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب ، ولم تكن مطمعا إلا في العصر الحديث بعد اكتشاف النفط بها.

بيد أن سكان اليمن جنوبا والشام والعراق شمالا وسكان الخليج شرقا تواصلوا مباشرة مع الأمم المجاورة ، ووقع تأثير متبادل بينهم ، ولهذا لم نجد ذكر لسكان هذه المناطق بين الفصحاء أو في الاحتجاج عند القدماء[1].

وقد زكى العلماء لغة قريش في الفصاحة؛ لأن لسانها مشهور في العرب ، وكان أكثر تهذيبا وبلاغة ، وخلا من شوائب اللهجات الشاذة ، فلا تجد فيه عنعنة ، ولا عجرفية ولا كشكشة ولا كسكسة ، ولاتلتلة ، ولا تضجع ، ولا غير ذلك من مظاهر اللهجات الشاذة ، وسقط الكلام وضعيفه[2].

ويرجع ذلك إلى أسباب منها: مكانة قريش ومنزلتها في العرب ، فقد كانت مركزا ثقافيا لقبائل العرب التي كان تؤمها من كل صوب ، فيبارون في منتدياتها بأشعرهم والمباريات الأدبية ، وتحكم كذلك في بعض الحكومات بين القبائل ، وكانت هذه الجلسات تعج بالخطابة والشعر ، وكان للشعراء في هذه القضايا دورهم ، وكنت لأشعارهم خطر كبير في الفصل في الخصومات بين القبائل ، ومن طريف ما يقال في ذلك أن معظم حروب الجاهلية كانت شرارتها الأولى قصيدة أو بيت منها أو خطبة لرجل مفوه ، وقد كان الشعراء يؤججون نار الحرب ويخمدون نارها ، وقد كان شعراء القبائل يحضرون أندية قريش التي تحضرها القبائل في المواسم ، وأهل قريش يجتمعون لها ، فترك ذلك فيهم ثروة لفظية هائلة ،

---

(1) وقد احتج أبو حيان الأندلسي بلغة لخم ، وخزاعة ، وقضاعة ، وغيرهم ، وقال: ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن . الاقتراح للسيوطي ص164 وهذه القبائل تعيش وسط الجزيرة مجاورة للقبائل السابقة في الاحتجاج .

(2) سيأتي توضيحها .

وربي فيهم ملكة (التذوق) ، فقد كانوا يستحسنون حلو الكلام وينفرون من مستبشعه ، وكانوا ينطقون لسانًا عربيًا لاعوج فيه ، فنزل به القرآن الكريم ، واحتج به علماء العربية ، وجعلوه في المنزلة الأولى من الاحتجاج .

وقد استبعد علماء العربية القبائل التي تأثرت بلسان الأعاجم أو خالطتهم .

قال أبو نصر الفارابي: « ... وبالجملة ، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم . فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام ، فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر ، والقبط ، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا إيادة فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية ، ولا من تغلب والنمر ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين بالجزيرة لليونانية ، ولا من بكر ؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ، ولا من أزد عمان ، لمخالطتهم للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلاً ، لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولولادة الحبشة فيهم ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ، ومن حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم»[1] .

وهذا الاختيار أو الانتقاء للقبائل في ظاهره فيه شيء من التعسف في عمومه ، وإذا نظرنا في تراثنا سنجد أن كثيرا من شعراء هذه القبائل حجة عند علماء العربية ودواوينهم موثقة ، والإطار الجغرافي ليس حدا فاصلا ، فامرؤ القيس من شعراء الطبقة الأولى الجاهليين وإمامهم ، وهو من أبناء ملوك قبيلة كندة التي تنحدر من أصول يمنية جنوبية ، وكانت مملكة كندة على ساحل الخليج ، وجنوب العراق ، ولها علاقات سياسية بالفرس ، وامرؤ القيس نفسه كان كثير الترحال ، والاختلاط ، وسافر إلى بلاد الروم ، واختلط بهم ، ونزل الشام ، وشعره حجة ، ومثله كثير من شعراء الجاهلية الفحول مثل النابغة الذبياني والأعشى ، وحسان بن ثابت رضي الله عنه ، قبل أن يسلم- وعمرو بن كلثوم والحارث

---

(1) الاقتراح ص 163 .

ابن حلزة ، وغيرهم من الشعراء الذين جالسوا الملوك ، وارتحلوا إلى القبائل وجابوا جزيرة العرب ، ونزلوا الشام والعراق ، وبهما أعاجم وقبائل الشام والعراق لا يحتج بهم .

وأرى أيضا أن هذا كان في الإسلام في زمن التدوين ، ولم يكن هذا الحكم ممتدًا في الجاهلية ، وإلا فمن المسلم به أن نخرج الشعراء الذين عاشوا بالعراق والشام من بين شعراء الاحتجاج .

ودليلنا في الاحتجاج بشعراء العراق والشام ، أن علماء اللغة اعتمدوا شعر الإسلاميين الذين عاشوا بالعراق والشام حتى نهاية القرن الثاني الهجري . مثل: جرير ، والفرزدق ، والأخطل والنميري وغيرهم .

وقد استبعد علماء العربية ما دون الشعراء من عامة الناس في الاحتجاج في صدر الإسلام؛ لأن سكان أمصار العراق والشام خالطهم الأعاجم ، وأثروا في خطابهم اليومي ، فلا يحتج بهم ، لأن لغتهم ليست في درجة لغة سكان البادية ممن عاشوا في عزلة بعيدا عن غضارة الحضارة ووخمة مدنها التي تفسد طبع سكان البادية وتعل صحتهم ، وتضعف لغتهم. وقد وجه بعض المحدثين نقدًا لاذعًا لمنهج القدماء في اصطفاء اللغة التي يقاس عليها ويحتج بها، ورأوا أنهم تعسفوا في اختيار المشهور من اللغة وترك الشاذ أو النادر، ورأوا أن ترك الشاذ أو لهجات بعض القبائل ضيّع كثيرًا من لغة العرب التي تفيد في إجازة وجوه متعددة في القاعدة الواحدة وأرى أن منهجهم هذا وحَّد العرب على نظام واحد للغة، فقد وضعوا قاعدة عامة لكل موضوع يقيس عليها أصحاب اللغة ، وتعدد الوجوه يرهق المتعلم والقارئ ويفتح باب الاختلاف ويعقد القاعدة، ويزيد فيها، وهو ما تأباه الظروف التي تمر بها اللغة .

وقد وجدت بعض ظواهر لغوية في لهجات القبائل التي يؤخذ عنها اللغة (من قبائل الحجاز ونجد وتهامة) ، ولم يعتمدها علماؤنا في الأخذ أو الاحتجاج ، وهذه القبائل عربية محضة لم تخالط الأعاجم ، وليست من القبائل التي لا يؤخذ عنها ممن سبق ذكرهن ، وهذا أيضا يعني أنهم لم يأخذوا بكل ما قالته هذه القبائل ، بل انتقوا المشهور المجمع عليه ، وتركوا الشاذ أو الضعيف وأهملوه في الأخذ والاحتجاج .

وأطلق علماء العربية على الظواهر الشاذة التي لا تتفق مع المشهور من كلام العرب اسم اللغات المذمومة أو الضعيفة ، وقد أحصى علماء العربية القدماء الظواهر الشاذة في لهجات العرب فيما يلي[1]:

1- العنعنة: وهي قلب عينًا مثل: أن: عن في: أشهد أنك رسول الله: أشهد عنك رسول الله. وأسلم: عسلم. وأذن: عذن .

وهذه الظاهرة الشاذة تقع في لغة قيس وتميم على المشهور بين العلماء .

2- الكسكسة: وهي قلب الكاف (الضمير) سينا ، أو إلحاق سين بها زيادة ، مثل: منك: منس ، عليك: عليس . وهي لهجة ربيعة ومُضر وبكر وهوازن على أرجح الأقوال .

3- الكشكشة: وهي زيادة شين بعد كاف الخطاب في المؤنث في الوقف ، وهو الأشهر – أو في الوقف والوصل معًا ، مثل: رأيتك: رأيتكش ، وبك: بكش .

ومن العرب من يبدل الشين مكان الكاف مثل: منك ، منش ، عليك ، عليش ، وهي في لهجة ربيعة ومضر[2].

4- الشنشنة: وهي جعل الكاف شينا مطلقا ، مثل: لبيك اللهم لبيك: لبيش اللهم لبيش. وهي لغة أهل اليمن .

5- الفحفحة: جعل الحاء عينا ، مثل: حتى: عتى ، أحمد ، أعمد ، وهي على المشهور في لهجة هذيل .

6- العجعجة: جعل الياء المشدة (ياء النسب في آخر الكلمة) جيما مثل: تميمي: تميمج. قرشي: قرشج. وكذلك ياء الإضافة في : غلامي: غلامج. وكتابي: كتابج .

7- الاستنطاء: جعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء مثل: أعطى ، أنطى . وهذه في لغة سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار .

---

(1) ارجع إلى الصاحبي ص35 ، والمزهرة 1/ 221 ، والخصائص 9 ، 10 .

(2) يوجد نظير لهذه الظاهرة في لهجة بعض أهل مصر الشماليين في ما قلتكش ، ماسألتكش ، ماضربتكش.

8- التلتلة: وهي كسر حركة تاء المضارعة في أول الفعل مثل: تعلمون ، تفعلون ، يصنعون. وهي في لهجة بهراء ، وتعرف بتلتلة بهراء .

9- الوتم: وهي جعل السين تاء . مثل: الناس: النات ، وهي في لغة بعض أهل اليمن .

10- اللخلخانية: وهي اختلاس الألف وحذف الهمزة في النطق من آخر الكلمة ، مثل: مشاالله في «ما شاء الله» . في لغة أعراب الشحر وعمان .

11- الطمطمانية (العجمة): وهي قلب اللام ميمًا في «ال» يقول: «أم» مثل: «ليس من امبرِامصيام في أمسفر »أي:« ليس من البر الصيام في السفر» ، ومثل: طاب الهواء: طاب امهواء . وهي لهجة حمير .

اختلاف اللغات

عرف تعدد اللغات قديمًا باختلاف الألسن الذي يعد آية من آيات الله في البشر ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: 22] . ألسنتكم: أي اللغات أو أجناس النطق وأشكاله[1].

وهذا الاختلاف يخضع لقانون التطور الاجتماعي في الأرض ، وهو من رحمة الله تعالى بعباده الذي جعل الاختلاف الذي يقع بينهم في الرأي أو الجنس أو اللون أو الطبائع أو اللغات أو غير ذلك رحمة الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: 19] . وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48] . فالناس في الأصل كانوا أمة واحدة تجمعهم روابط واحدة ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ...﴾ [البقرة: 213] . قال المفسرون أمة واحدة من لدن آدم حتى طوفان نوح ثم افترقوا .

---

(1) النسفي جـ2/ 269 ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

وهذا الافتراق أو الاختلاف لا يكون إلا بعد أمة أو جماعة ، وسببه كثرة العدد والتنافس والتحاسد والصراعات الداخلية ، وتاريخ الأمم البدائية يثبت أن اختلافهم وتفرقهم يخضع لهذه العوامل وعوامل أخرى اقتصادية لضيق العيش والبحث عن أماكن أخرى أكثر ثراء ورغدا أو الكوارث الطبيعية التي يعقبها هجرة .

وجاء في العهد القديم ما يفيد أن الجنس البشري تشعب بعد الطوفان إلى ثلاث سلالات: «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث ، وحام هو أبو كنعان ، وهؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت الأرض»[1]،و«بارك الله نوحا وبنيه ، وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض[2] ، وجاء في الإصحاح العاشر مواليد بني نوح» وهذه مواليد بني نوح ، سام وحام ويافث وولد لهم بنون بعد الطوفان» . وذكر أسماء بني يافث والأرض التي سكنوها ، «من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم بأرضهم كل إنسان بلسانه حسب قبائلهم بأممهم» . ثم جاء فيه ذكر بني حام ، واسم الأرض التي سكنوها ثم ختم الحديث عنهم بـ «هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم وأممهم» . ثم جاء ذكر بني سام ومساكنهم وانتهى بالعبارة السابقة ، وختم الإصحاح بـ «هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان» .

ويأتي تفسير سبب اختلاف الألسنة أو اللغات على النحو التالي: «وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة ، ورأى بنو آدم أن يبنوا مدينة لهم بأرض شنعار ، ثم فكروا في أن يعيدوا بناء المدينة على نمط أحدث ، وأن يشيدوا برجا عاليا يعرفون به مدينتهم حتى لا يتفرقوا في الأرض فنزل الرب ينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما . وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم ، وهذا ابتداؤهم بالعمل ، والآن لا يمنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض ، فكفوا عن بنيان المدينة ، لذلك دعى اسمها بابل ؛ لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ، ومن هناك بددهم الرب على وجه كل

---

(1) الإصحاح التاسع من سفر التكوين (18 ،19) ص15 .

(2) الكتاب المقدس ، العهد القديم الإصحاح التاسع آية: 1 .

الأرض»[1].

ولم يذكر العهد القديم شيئا عن ذرية من آمنوا مع نوح أو عقبهم ، كما أنه جزم بأن الأمم ينتمون إلى قبائل بني نوح الثلاثة دون خلط في الأنساب ، وهم جميعا بنو بيت واحد ، يفترض فيهم المخالطة والمصاهرة ، وإشارة العهد القديم إلى اختلاف الألسنة (اللغات) وقع مرة واحدة من الله في أرض بابل التي اختلفت فيها اللغات أو تبلبلت فيها الألسنة .

واختلاف اللغات لا يقع في زمن واحد أو متقارب بل يقع في قرون ، ولا يحدث في مكان واحد بل يختلف أهل اللسان الواحد إذا تباعدت بينهم الشقة ولم يتواصلوا ، فتظهر الفروق اللغوية ، وتتأثر كل جماعة بمحيطها ، ونقاء الجنس أو النسل غير مأخوذ به في العلوم التي تعني بالدراسات الإنسانية (علم الأنثربولوجيا) ، ولم يقبل علماء الغرب ما قيل في انقسام البشر إلى أجناس ثلاثة ؛ لأن فيه مخالفة لقانون التطور الاجتماعي ، واختلاف اللغات لا يقع على هذا النحو من الفعل الحتمي في زمن قصير وبيئة واحدة .

وتعدد اللغات يحكمه قانون آخر غير ما جاء ذكره في العهد القديم أنه وقع حتما عن أمر إلهي ، فوحدة اللغة تحكمها وحدة الجماعة ، وكل جماعة لها سمات وخصائص لغوية تميزها عن غيرها ، وتحتفظ بوحدتها وتجانسها في ظل هذا التجمع الموحد المتجانس . وتصبح هذه الوحدة شديدة الارتباط به حتى إذا وقع اختلاف بين هذا التجمع ، فانقسم على نفسه إلى وحدات صغرى مستقلة ظهرت الفروق المحلية في لسان كل جماعة منه ، وتتسع هوة الاختلاف بين هذه الألسنة المتباعدة بمرور الزمن وتزداد الفروق اللغوية الخاصة بين هذه الألسنة حتى تصل إلى مرحلة التميز المحض ، فتصبح هذه اللغوة أو اللهجة التي استقلت عن اللغة الأم لغة مستقلة تتميز بمستويات صوتية وحرفية وتركيبية ومعجمية خالصة.

وهذا يقع في ظروف معينة منها اختلاف عنصر المجتمع ، واختلاف المكان ، وطول الفترة الزمنية التي عاشتها اللهجة بعيدة عن اللغة الأم ، وضعف وسائل الاتصال وقلتها ، والتعدد اللغوي يقع في الأمم البدائية سريعا ، لقلة التواصل وقسوة المعيشة التي تدفعهم إلى

---

(1) الإصحاح الحادي عشر آية 1: 9 .

الهجرة دائما والصراع ويمكن تلخيص عوامل تطور اللهجة إلى لغة فيما يأتي:

أولا : المجتمع: يتواصل المجتمع الواحد بلسان واحد في حالة استقراره وترابطه ، ولكن قد تدفع الظروف التجمعات البشرية بفضل تطورها ونموها إلى الانقسام والهجرة ، فالهجرات الجماعية والانقسامات تقيم مجتمعات جديدة مستقلة ذات كيان مشترك ، وتتأثر اللغة كذلك بجميع ظروف المجتمع الذي تعايشه وترتبط به .

ثانيا: المكان: المكان الواحد من عوامل حفظ اللغة ، ولكن إذا تمت هجرة الجماعات المستقلة إلى أماكن أخرى ، تفرض على الجماعة المستقلة عزلة أو صعوبة تواصلها مع المجتمع الأم ، وقد يحدث أن تنزل تلك الجماعة على أخرى ، فتكتسب لغتها أو تتأثر بها أو تفرض لغتها عليها .

ثالثا: الزمان: إذا طالت الفترة الزمنية ، فإن ذلك يزيد فاعلية الاستقلال والتغير في تلك المجتمعات المستقلة .

رابعا: البيئة: تؤثر البيئة في أهلها وتكسبهم طبائع وعادات ومفردات جديدة تلائمها ، وتؤثر طبيعتها إيجابا أوسلبا في المجتمع الذي يعيش فيها .

خامسا: الشفاهية: فاللغة المنطوقة تتغير تغيرا سريعا عن اللغة المكتوبة ، فالتدوين وعاء اللغة وتراثها يحفظها بيد أن المنطوق عرضة للتطور والتحريف والتغير . ويلاحظ أن المجتمعات المستقلة عن مجتمع الأم تحتفظ لنفسها ببقايا موروثة من اللغة الأم ، ولكن هذه البقايا تذوب مع مرور الزمن وتتطور هذه الجماعة ، ولكن يمكن إدراكها من خلال ما تبقى لهذه الجماعة من آثار أو نصوص قديمة تستطيع من خلالها إثبات تلك الصلة بينها وبين اللغة الأم .

سادسًا: عوامل سياسية: تساهم العوامل في استقلال اللهجة عن اللغة الأم إذا تخذتها لسانا رسميا لها ، وساعدت على استقلال الجماعة التي تتحدثها ، والسياسة هي التي تهيِّئ للهجة مكانا مناسبا في الخطاب ، وتساعد في نشرها بما تقدمه من دعم مادي وإعلامي .

ويلاحظ أن عوامل الانقسام حدثت قديما في فترة لم تعرف التدوين أو الاستقرار ،

وكان التواصل فيها صعبا ، والظروف البيئية كانت تفرض قيودها على من يعيشون داخلها ، إلى جانب الهجرات كانت تتم بشكل جماعي ، الأمر الذي كان يعين على حفظ تواجدها ، وكان الاحتكاك بين الجماعات ضئيلا فقد كانت تعيش في شبه عزلة ، ومن ثم كان اللسان الشفهي لتلك الجماعات يتطور بفضل عنصر الزمن والمجتمع بعيدًا عن اللغة الأم وسببه انقطاع الصلة بها .

وقد جاء في بعض المصادر القديمة روايات عن سبب اختلاف الألسنة ، وأشارت إلى اللسان الأول ، ومصدر هذه الروايات ليس الشرع أو نص ثابت بل إسرائيليات أو أخبار مروية عن أخبار اليهود الذين شاركوا في الحياة الثقافية في الإسلام أو عن طريق الاطلاع على تراث الأمم الأخرى .

وقد جاء في بعض المصادر أن آدم عليه السلام كان يتكلم جميع الألسنة (اللغات) ، وتوارثها عنه بنوه ، فاختار كل واحد منهم لسانا ، وقيل إن آدم كان يتكلم العربية في الجنة ، ثم تحول عنها إلى السريانية بعد أن هبط إلى الأرض ، وهو يشاكل اللسان العربي ، إلا أنه محرف ، فكان لسان جميع من في السفينة إلا جرهم الذي كان لسانه لسان العربي الأول ، وقيل إن التعدد أو اختلاف اللغات بعد الطوفان في بابل ، حيث تبلبلت فيها الألسنة ، فقد نادى مناد: من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره ، واقتصد البيت الحرم بوجه ، فله كلام أهل السماء ، فاختار يعرب بن قحطان هذا اللسان ، وهو العربية ، فلم يزل المنادي ينادي من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا ، حتى افترقوا على اثنين وسبعين لسانا ، وانقطع الصوت وتبلبلت الألسن[1] .

وقيل غير ذلك ، وهي روايات عارية من الصحة ، متأثرة بما رواه الإخباريون والقصاص في الأزمنة السحيقة ، وما وضعته الأساطير من خرافات لعجزها عن معرفة الحقيقة .

وكثير من هذه الأخبار مصدرها أحبار اليهود ، أو وضعت في الإسلام ونسبت زورًا

---

(1) ارجع إلى: المزهر جـ 1/ 31 ، 32 .

إلى علم من أعلام الصحابة ، ليوهم الوضاعون صحتها . وقد روي في ذلك روايات يبطل بعضها بعضا وظاهرها مخالف لما توصل إليه العلم . وأمثلة ذلك ما روي منسوبًا إلى كعب الأحبار: أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام . قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه . فلما أصاب الغرق ، وجد كل قوم كتابا فكتبوه ، فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي[1].

وقال ابن فارس: «وكان ابن عباس يقول: «أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل عليه السلام ، وضعه على لفظه ومنطقه» . والروايات في هذا الباب تكثر وتختلف[2].

وهذه الآراء عرفت في الإسلام بعد أن دخل كثير من علماء أهل الكتاب في الإسلام ، وشاركوا في الحياة الثقافية ولم تكن معروفة زمن النبوة بين المسلمين .

---

(1) الصاحبي ، لابن فارس ص10 ، وأدب الكتاب للصولي ص28 . والوزراء والكتاب للجهشياري ص1 . والمزهر لجلال الدين السيوطي . 2/ 282 ، قال السيوطي: هذا الأثر أخرجه ابن أشته في كتاب المصاحف بسنده عن كعب الأحبار ، المزهر جـ2/ 341 وكعب الأحبار كان من علماء اليهود ، وأسلم في خلافة عمر رضي الله عنه .

(2) الصاحبي ص 10 والمزهر جـ 2/ 342 . قال السيوطي: هذا الأثر أخرجه ابن أشته والحاكم في المستدرك من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه .